ضوابط فهم قضايا الخلاف العقدي بين المسلمين

أ. احسن برامة

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

مقدمة:

جاءت العقيدة الإسلامية للناس أجمعين على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم لتصحيح تصوراتهم عن الكون والحياة والإنسان كقاعدة أساسية لتأسيس حياة إنسانية مستقرة ومزدهرة، نظرا لما تضيفه عقيدة التوحيد على الفكر والمجتمع من إيجابية وخير ورحمة.

غير أن شيوع ظاهرة الاختلاف بين المسلمين دفع بمختلف قضايا العقيدة والسياسة إلى ساحة الجدل العقدي مما ولّد مشاعر الكراهية والتعصب والتراشق بتهم التفسيق والتبديع والتكفير بين مختلف الفرق الإسلامية وشكل تهديدا لقوة الأمة ووحدتها وحضارتها. جعلها فريسة في يد المغول والصليبيين قديما والإستعمار العسكري والثقافي حديثا.

وعلى هذا الأساس كانت عمليات إحياء قضايا الخلاف بين المسلمين (العقدية والسياسية) في غياب ضوابط علمية وموضوعية كمن يحاول عبور حقل ألغام.

ذلك أن قضايا الخلاف بين المسلمين (العقدية والسياسية) من الخطورة والحساسية المفرطة بمكان. أنهكت الأمة الإسلامية في قرونها السابقة.

ولذلك كانت عملية إعادة قراءة هذه القضايا في الفترة المعاصرة تتطلب وجود صمامات أمان حفاظا على ما تبقى من روح الأمة ووحدتها وتماسكها حتى لا تتحول إلى ذكرى في التاريخ.

وهذه الصمامات لن تكون إلا في التقيد بجملة مبادئ ودعائم منهجية وفكرية وأخلاقية. لا تقضي على ظاهرة الخلاف في حد ذاتها وإنما من شأنها تفكيك خطورتها والحد من تلك المبالغات والتهويلات في استصدار أحكام التضليل والتكفير كمقدمة لإستباحة الدماء والأعراض ولا شك أن التقيد والعمل بهذه الضوابط لا يثمر فقط ذلك التنوع الفكري والثقافي في قبول الآخر. وإنما من شأنه أن يعيد لهذه الأمة تماسكها وإرادتها ووحدتها كمقدمة للنهوض بدورها الحضاري في ظل التحديات المعاصرة.

وقبل أن نحدّد ضوابط فهم قضايا الخلاف بين المسلمين، يحسن أن نشير إلى مفهوم الخلاف وكيف تطوّرت العقيدة الإسلامية من عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى عهد الخلاف.

ضوابط فهم قضايا الخلاف العقدي بين المسلمين

أ. احسن برامة

جامعة الأمير عبد القادر - قسنطينة

مقدمة:

جاءت العقيدة الإسلامية للناس أجمعين على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم لتصحيح تصوراتهم عن الكون والحياة والإنسان كقاعدة أساسية لتأسيس حياة إنسانية مستقرة ومزدهرة، نظرا لما تضيفه عقيدة التوحيد على الفكر والمجتمع من إيجابية وخير ورحمة.

غير أن شيوع ظاهرة الاختلاف بين المسلمين دفع بمختلف قضايا العقيدة والسياسة إلى ساحة الجدل العقدي مما ولّد مشاعر الكراهية والتعصب والتراشق بتهم التفسيق والتبديع والتكفير بين مختلف الفرق الإسلامية وشكل تهديدا لقوة الأمة ووحدتها وحضارتها. جعلها فريسة في يد المغول والصليبيين قديما والإستعمار العسكري والثقافي حديثا.

1- بيان حقيقة الاختلاف:

الاختلاف والمخالفة أن ينهج كل شخص طريقا مغايرا للآخر في حاله أو قوله، والخلاف أعم من "الضد" لأن كل ضدين مختلفان. وليس كل مختلفين ضدين.

ولما كان الاختلاف بين الناس في القول قد يفضي إلى التنازع أستعير ذلك للمنازعة والمجادلة.

قال تعالى:" فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ"[1]

وقال أيضا: وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"[2]

وقال أيضا:" إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ"[3]

وقال أيضا:"إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ "[4]

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن "الخلاف والاختلاف" يراد به مطلق المغايرة في القول أو الرأي أوالحالة أو الهيئة أو الموقف [5].

وقد كانت بداية الخلاف بين المسلمين لأسباب سياسية محضة تتعلق بمنصب الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وما تلي ذلك من أحداث معروفة في كتب التاريخ، غير أن تلك الخلافات السياسية سرعان ما أخذت طابعا دينيا.

---

[1] - سورة مريم: الآية 37

[2] - سورة هود: الآية 118

[3] - سورة الداريات: الآية 8

[4] - سورة يونس: الآية 93.

[5] - طه جابر العلواني، **أدب الاختلاف في الإسلام**. د ط. دار الشهاب، باتنة، 1985، ص24.

يقول محمد أبوزهرة في هذا المجال " كثر الجدل في الخلافة الإسلامية في ثلاثة أدوار في عصر الخلفاء الراشدين : ففي الدور الأول: كان يدور الجدل أولا حول إستحقاق الأنصار أو المهاجرين للخلافة، وكان الأنصار يحتجون بالنصرة والإيواء والمهاجرون يحتجون بأسبقيتهم في الإسلام وقربتهم من رسول الله، وقد انتهى ذلك بالإقرار للمهاجرين...

أما الدور الثاني: فقد كان في تلك الفتن التي قامت في آخر عصر الخليفة الثالث وما كان يحدث في الأقاليم من الظلم والتآمر على الإسلام .. أما الدور الثالث: فقد كان بعد أن بويع علي رضي الله عنه بالخلافة وما عرفه عهده من فتن مثل: مطالبته بالقصاص من قتلة عثمان وما تبع ذلك من حوادث حرب الجمل وغيرها[1].

وقد أدت تلك الفتن والحوادث الداخلية التي عاشها المسلمون في حرب الجمل وصفين إلى طرح تساؤلات عقدية خطيرة مثل: قضية مرتكب الكبيرة وقضية التحكيم وغيرها.

وهوما انتهى بظهور الفرق الإسلامية : كالخوارج والشيعة والمرجئة على المسرح السياسي والفكري.

غير أن الخلاف لم يتوقف عند هذا الحد، فما لبث بعد ذلك أن ظهرت الجبرية والجهمية والمعتزلة والأشاعرة، كفرق دينية ناقشت مختلف قضايا العقيدة أصولا وفروعا.

وهكذا نقف على أن تاريخ المسلمين عرف ألوانا من الاختلافات:

إختلافات سياسية، إختلافات عقدية وإختلافات فقهية.

---

1 - محمد أبو زهرة، تاريخ الجدل، د 1، دار الفكر العربي. د م. د ت. ص،ص: 94، 100.

إلا أن أخطرها تمثّل في تلك الاختلافات العقدية التي مزقت الأمة، فاستبيحت فيها الدماء والأعراض باستصدار أحكام التفسيق والتبديع والتكفير [1].

وبعد بيان حقيقة الاختلافات في خطها التاريخي، كان يتأكد أنه في الوقت الذي كانت الاختلافات الفقهية تعبيرا عن تلك المرونة والتسامح والتنوع التي تميز بها الموروث الإسلامي كانت الاختلافات العقدية تشكل تهديدا لوحدة الأمة وقوتها ووجودها وهوما يطرح إشكالية من الأهمية بمكان كما يقول محمد سعيد رمضان البوطي: العقيدة التي كانت أساس توحيد بالأمس كيف تصبح أداة تفريق اليوم؟ [2].

كلّ ذلك يدعو كضرورة ملحة إلى دراسة قضية الخلاف عامة والعقدي على وجه أخص دراسة علمية موضوعية، تبتعد عن استصدار الصياغة العقدية للخلافات وتعمل على الحفاظ على وحدة الأمة وقوتها.

وهذا لا يتأتى إلاّ بانتهاج الفكر العقدي المعاصر نهجا يقوم على الابتعاد عن الجدل العقدي (الأصول، الفروع) ويعمل على إعادة ربط الإيمان بالعمل بإعطاء عقيدة التوحيد بعدها الاجتماعي والإنساني في تعمير الأرض وإعادة الدور المحوري للإنسان المسلم في إطار الخلافة في الأرض.

2- العقيدة الإسلامية من عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة إلى عهد الخلاف:

---

[1] - محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ط 1. دار الفكر العربي. دم . دت، ص ص: 24 – 34.

[2]- محمد سعيد رمضان البوطي، العقيدة التي كانت أساس توحيد بالأمس كيف تصبح أداة تفريق اليوم، في: **ملتقى الفكر الإسلامي الثاني و العشرين**، الجزائر، ص 115.

إن العقيدة الإسلامية هي الأساس الرئيسي الذي تبنى عليه سائر أمور الدين. فهي الأصل وهي أول أمر يطلب ممن أراد الدخول في الإسلام، وهذا الموقع الأساسي للعقيدة في بناء الإنسان المسلِم وبناء المجتمع المسلم الذي يهدف إليه الإسلام، يدفعنا للبحث في حقيقة ومضمون العقيدة الإسلامية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام.

وقد قام الدين في نفوس الصحابة الكرام على أن الإسلام قول وعمل[1]. ولذلك كان الإيمان إقرار بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح، ولا معنى لإيمان بلا عمل. أولعمل بدون عقيدة. ولذلك لم تعرف العقيدة في زمن النبي (صلّى الله عليه وسلّم) هذا الفصل بين الإعتقاد والعمل الذي شاع في عهود لاحقة. وقد نزل القرآن محذرا ومنبها إلى هذه المسألة الدقيقة قال تعالى:

"ا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ"

"بُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[2]

وهذا الوصل بين الإيمان والعمل وبين العقيدة والسلوك أدى إلى إيمان وإلتزام وذوبان جميع الصحابة في منظومة واحدة في جانبها العقدي الفكري القيمي وفي جانبها السلوكي العملي.

ففي مدة قصيرة كان العالم في الشرق والغرب يخضع لسلطة الإسلام، وكأن الأرض على إمتدادها وإتساعها كانت تنكمش تحت أرجل الفاتحين إنكماشا يقف العقل أمامه حائرا وماكانت هذه المناطق الواسعة الممتدة لتخضع في استسلام في يد المسلمين لولا تلك القيم الإيمانية الكبيرة التي غرستها العقيدة

---

[1] – محمد هشام سلطان، **العقيدة و الفكر الإسلامي**، ط 2. مكتبة رحاب. الجزائر. 1988. ص 14.

[2] – سورة الصف، الآيات: 2-3

في النفوس والعقول من التضحية والشهادة وغيرها والواضح خلال هذا العهد أن فهم العقيدة الإسلامية كان يتناول الجانبين: جانب الإيمان وجانب العمل. لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

ولذلك فإن أصول الدين من الإيمان بالله واليوم الآخر والكتاب والملائكة والقضاء والقدر. كانت تقوم على التلقي والتسليم دون جدل أونظر عقلي. وكذلك أحكام العمل التي كانت تراعي مبادئ وتوجيهات العقيدة من شروط النية وفعل الخيروابتغاء وجه الله وغيرها من الموجّهات والتصحيحات السلوكية والأخلاقية التي عملت العقيدة الإسلامية على إعادة بناءها بناء سليما وجعلت الأعمال الموجهة لغير الله، لأجل الرياء والسمعة من الشرك الأصغر.

وعلى هذا الأساس رتب أبوحامد الغزالي الرياء بالأصول على ثلاثة درجات:

الأول:الرياء بأصل الإيمان وصاحبه مخلد في النار وهوالذي يظهر الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ولكنه يرائى بظاهر الإسلام.

قال تعالى:"إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ"[1]

والآيات كثيرة...

الثاني:الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصول الدين وهذا أيضا عظيم عند الله ولكنه دون الأول بكثير.. ومن أمثلته من يصل رحمه لا رغبة ولكن خوف من الناس.

---

[1] - سورة المنافقون، الآية: 1

أومن يصوم رمضان وهويشتهي خلوة ليفطر... لأن خوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ورغبته في محمدتهم أشد من رغبته في ثواب الله. وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الإعتقاد.

الثالث:أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض ولكنه يرائي بالنوافل والسنن... خوف من المذمة وطلبا للمحمدة، ويعلم الله أنه لوخلا بنفسه لما زاد عن الفرائض.

فهذا أيضا عظيم ولكنه دون ما قبله...وهذا هوالرياء بأصول العبادات[1].

وعليه فقد قامت العقيدة في عهد النبي (صلّى الله عليه وسلّم) على أساس التلقي والوحي الإلهي بعيدا عن الاجتهاد الفكري أوالنظري العقلي في أصول الدين. وقد خرج النبي (صلّى الله عليه وسلّم) ذات يوم ورأى الصحابة يتجادلون في القضاء والقدر فغضب ونهاهم عن الجدل وعن ضرب القرآن بعضه ببعض.

وقال أيضا في مناسبة أخرى محذرا من الجدل في قضايا الإيمان: " إنما هلك من قبلكم كثرة مسائلهم وإختلافهم على أنبيائهم".

وهكذا قامت أصول العقيدة في عهد النبي (صلّى الله عليه وسلّم) والصحابة الكرام على الإيمان بالمتشابه والعمل بالمحكم وترك الجدل والخصام...إلخ.

ويقول مصطفى حلمي في بيان صورة العقيدة في عهد النبي (صلّى الله عليه وسلّم) وشرح بعض هديه عليه السلام في ذلك:

" كان الوحي المعصوم هوالمصدر الذي تلقى الصحابة منه بواسطة النبي (صلّى الله عليه وسلّم) هذه الأصول الدينية حيث أرشدهم إلى منهج المحافظة

---

[1] - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 3، دار المعرفة، بيروت، ص ص: 302- 303.

عليها ونهاهم عن مفارقتها وهذه النواهي أجملها إبن الوزير اليماني في النصوص التالية:

1-النهي عن البدع.

2-النواهي عن المراء مطلق بخلاف المجادلة بالتي هي أحسن.

3-النواهي عن المراء في القرآن.

4-النواهي عن المراء في القدر خاصة.

5-النواهي عن التفكر في ذات الله تعالى

وذلك لسد منافذ الشيطان ووسوسته.

وكان الصحابة حريصين على الفهم والإستعاب الدقيق الكامل لكل ما يتعلمونه من القرآن والحديث فكانوا إذا تعلموا من النبي (صلّى الله عليه وسلّم) عشر آيات لم يجاوز وها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل"[1] وهكذا تعلموا العلم والعمل في وقت واحد.

وعلى هذا الأساس اتّسمت العقيدة في عهد النبي (صلّى الله عليه وسلّم) بربط الإيمان بالعمل، والابتعاد عن الجدل في أصول الدين باعتماد الدليل العقلي.

غير أنّ طبيعة الأحداث والتحديات التي واجهت المسلمين بعد عهد الرسول من عوامل داخلية بعضها اتّصل بنصوص القرآن نفسها الّتي تضمّنت ورود المتشابه في القرآن الكريم، حيث أثارت تلك الآيات تفسيرات وتأويلات مختلفة في مسائل متنوعة، مثل قضايا الجبر والاختيار وحرية الفعل الإنساني.

---

[1] - مصطفى حلمي، **قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي**، ط 1، دار ابن الجوزي، القاهرة، ص 37.

إلى جانب آيات أخرى ذكر فيها الوجه واليد والاستواء[1].. إلى جانب الأحداث السياسية العنيفة كالجمل وصفين لتطرح تساؤلات عقدية ملحّة، دفعت إلى محاولة البحث عن أجوبة لهذه التساؤلات، إضافة إلى التحديات الخارجية التي تمثلت في اصطدام المسلمين أثناء الفتوحات الإسلامية بشعوب ذات ثقافات لاهوتية تبحث في مسائل الجوهر والعرض وغيرها.

ولم يستطع الفكر العقدي المعاصر التخلّص من رواسب الخلاف التاريخي.

وعليه، اقتضى الأمر ضرورة إيجاد مرتكزات جديدة لبناء فكر عقدي جديد قادر على تجاوز قضايا الخلاف وفق دعائم علمية موضوعية تعيد للأمّة وحدتها.

3- المرتكزات الفكرية والأخلاقية لقضايا الخلاف بين المسلمين:

لا شك أن الخلافات التاريخية والسياسية العنيفة التي وقعت بين المسلمين، لا تزال تحتل مساحة واسعة من الفكر العقدي الإسلامي الذي لم يستطع التخلص من آثارها إلى اليوم على المستوى النفسي والفكري والسلوكي بين المسلمين بما ولّده من مشاعر الحقد والكراهية والعنف اللفظي والكلامي بين أتباع مختلف الفرق والمذاهب والتيارات.

ولذلك فإن تلك الأحداث التاريخية العنيفة من أخطر العقبات التي تواجه حركات التجديد للفهم والسلوك، لما لتلك الموضوعات من حساسية مفرطة بين المسلمين، وهو الوضع الذي يجعل أسباب النزاع والتطاحن والخلاف تظل قائمة. تهدد بنسف جميع المجهودات التجديدية ولذا نرى ضرورة العمل على إيجاد مجموعة من المبادئ والمرتكزات الفكرية والأخلاقية، تكون بمثابة ميثاق

---

[1] محمّد صالح محمد السيد، **أصالة علم الكلام**، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1987، ص: 73.

تعاهدي توافقي بين المسلمين يساعد على بناء تلك القاعدة الصلبة التي يكون على أساسها التلاقي والتآلف والتآخي والنصر.

وهذه المرتكزات فيما نعتقد تتمثل فيما يلي:

أ- الأسس والمبادئ العامة:

1- تقديم أصل الوحدة والترابط بين المسلمين على ظاهرة الاختلاف:

لا يجب أن يغيب عن ذهن الباحثين في الإسلام تاريخا وفكرا أن أصل الوحدة والترابط والبعد عن الفرقة والاختلاف من أهم الأصول العقدية التي أكد عليها القرآن الكريم. فالوحدة حقيقة إنسانية وكونية وقرآنية[1]. قال تعالى:" وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"[2]

وقد نقل السيوطي في سبب نزول هذه الآيات عن طريق ابن إسحاق وإبن جرير أن شاس بن قيس وكان شيخا في الجاهلية عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم مر على نفر من أصحاب رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى ما ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العدوان في الجاهلية. فقد إقتتلوا في الجاهلية زمنا طويلا.

فقال: قد إجتمع ملأ بني قبلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار فأمر فتى شابا معه من يهود فقال: أعمد إليهم فاجلس معهم. ثم ذكرهم يوم بعاث، وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار،

---

[1] محمد أبو زهرة، **الوحدة الإسلامية**، دار الرائد العربي، بيروت، د.ت، ص:13.

[2] - سورة آل عمران الآية: 103

وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا واستبوا حتى تواثب رجلان من الحيّيْن ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة. وأشرع بعضهم الرماح على بعض وغضب الفريقان جميعا وقالوا قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة...فبلغ ذلك رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم)، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه. فقال: "يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ أبعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنفذتم من الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا".

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم لهم فألقوا السلاح وبكوا وعانقوا بعضهم بعضا. ثم انصرفوا مع رسول الله..[1]

وقال تعالى أيضا: " إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ"[2]

كما حذر القرآن الكريم من التفرق أيّما تحذير فقال عز وجل: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ"[3]

فجعل تفريق الأمة شيعا يذيق بعضها بأس بعض، من أنواع العقوبات القدرية التي ينزلها الله بالناس إذا انحرفوا عن طريقه " [1].

---

[1] – جلال الدين السيوطي، الدار المنشور في التفسير بالمأثور، ج 2، دار المعرفة، بيروت، ص.ص 61، 63.

[2] – سورة الأنعام الآية 159

[3] – سورة الأنعام الآية 65.

وقد وردت في السنة النبوية الكثير من الأحاديث الشريفة التي يصعب حصرها. الداعية إلى التراحم والتآخي والمحبة وأداء حقوق الجوار وغيرها...من الأخلاق والآداب الاجتماعية التي تهدف إلى بناء المجتمع بناء متميزا قويا يشد بعضه بعضا. لا تتسرب إليه بذور الفرقة والتطاحن والتباغض التي تؤدي في النهاية إلى ضعفه وانهياره.

والناظر في تاريخ المجتمع الإسلامي الذي بناه الرسول (صلّى الله عليه وسلّم) يلحظ بدهشة وإعجاب ذلك الصمود المنقطع النظير الذي أبداه ذلك المجتمع الفريد من نوعه في مواجهة مختلف الاهتزازات والمؤامرات التي كان يخططها ويرسمها أعداء هذا المجتمع في الداخل والخارج من المنافقين في داخل مجتمع المدينة، والمشركين واليهود من خارجه... من الفتن والقلاقل والأكاذيب لهزه من الداخل نفسا أو فكريا أو اجتماعيا... والتي كانت تنكسر كلّ مرّة أمام تماسك هذا المجتمع.

ولذلك فإن تعريض هذا الإتحاد والمحبة والأخوة والأمن إلى خطر الفرقة والخلاف والتطاحن أمر يتعارض ومبادئ القرآن وأصوله الداعية إلى الوحدة.

ومع الإقرار بوجود هذه الاختلافات بين المسلمين، إلاّ أنّه لا يجب أن تتجاوز هذه الخلافات خطين أساسيين حتّى لا تتحول إلى ثقافة للكراهية، والحقد والتفرق...إلخ.

الخط الأول: هو مجال العقيدة. فالخلاف العقدي مصيبة جرت على المسلمين الكوارث وشقت الصفوف وفرقت الكلمة. ووقع التراشق بتهم التكفير

---

[1] - يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع و التفرق المذموم، د ط، د ت، ص 32.

والتبديع والتفسيق والتظليل ثم استباحة دماء المخالفين وأعراضهم بالتأويل لا بالتنزيل.

ولذلك فإن الاختلاف في مسائل أصول الدين أمر مرفوض من شأنه أن يزعزع عقيدة الأمة ويضعفها.

أما الاختلاف في مسائل الفروع العقدية فهو خلاف بين المجتهدين، ولكنه لا يجب أن يمتد إلى العوام حتى لا يتحول إلى فتنة لهم وامتحان لهم بما لا تطيقه عقولهم...وإذا كانت هذه القضايا الكبيرة والحساسة قد أثيرت وقتا كانت فيه الأمة أكثر قوة وعافية. فكيف بإثارتها أو إعادة إحياءها والأمة في حالة ضعف وأعداءها يجلدونها بكل قسوة.

أما الخط الثاني الذي يجب أن لا تغفله هذه الاختلافات...وهو ثمرة الخلاف.

فإذا كانت ثمرة الخلاف هو تفرقة الأمة وزرع بذور الكراهية والحقد والقضاء على الحب والإخاء والتسامح، وكسر تماسك الأمة ووحدتها.

فأي صبغة إسلامية تعطي لهذه الاجتهادات؟! ولهذه الآراء؟!

ولذلك أرى أن كل اجتهاد فكري من شأنه أن يمزق الصفوف والمشاعر والأفكار الواحدة لن يكون انحرافا عن المنهج القرآني، بل تدميرا للمنهج نفسه ضرب للأمة بالأمة.

ولذلك وجب أن تكون عقيدة الأمة ووحدتها الشعورية والفكرية والسلوكية خارج دائرة الاختلافات.

2- ضرورة التعايش السلمي بين مختلف فرق وتيارات الفكر الإسلامي:

من الواضح البين عند قراءة خريطة الفكر الديني عند المسلمين، أن الخريطة المذهبية بشكل عام قد استقرت نهائيا في أعماق التاريخ.

" وإذا كان المسلمون قد افترقوا في فجر تاريخهم وإكتووا بنار تلك الفتنة، فافترقوا في السياسة وإختلفوا في نظام الحكم ولكن لإرتباط السياسة بالدين إنتقل الخلاف من نظام الدولة إلى العقيدة، وتطور التباين في الرأي إلى مهاترة وخصومة، ثم إلى حروب سالت فيها الدماء وأهدرت كرامات وإنتهكت حرمات، تفككت بها الوحدة وإنهارت بها القوة، ولا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن السبب الأكبر في كل ذلك هوالخروج عن الأدب الذي أدبنا الله به في الدعوة إلى الله وإلى ما نزل من الحق، والأخذ بما تمليه الشهوة والعاطفة اللتان هما مرتع الشيطان من الإعتداد بالنفس والتعصب للرأي وأخذ المخالف بالشدة والتسرع في رميه بالضلال، بل الفسوق والعصيان والكفر. فيقوم بذلك بين المختلفين سد من العداوة والبغضاء يحول بين الهداية ووصولها إلى القلب فينعدم أثر التناصح[1].

فإذا كانت هذه هي صورة ذلك الماضي، فهل سيكون مستقبل المسلمين صورة طبق الأصل لذلك الماضي الأليم؟

وبدون، هذا التعايش السلمي فسيكون حاضر المسلمين ومستقبلهم صورة لذلك الماضي المذهبي، الفكري، المتناطح المتلاعن وتكريس لفكر المواجهة[2] الذي يقضي على الجميع لصالح أعداء الإسلام.

---

[1] - محي الدين القليبي، التونسي، **أدب الدعوة إلى الحق**، في : **حول الوحدة الإسلامية أفكار و دراسات**، ط 2، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران، 1409 هـ، ص 108.

[2]عمر عبيد حسنة. **مراجعات في الفكر والدعوة والحركة**. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ص: 127.

3- إضفاء الطابع العلمي على الاختلافات:

إن غياب الطابع العلمي في قراءة الاختلافات التي وقعت بين المسلمين، جعل بذور تلك الخلافات تظل متأجحة في النفوس تنتظر الفرصة للإنفجار والثورة. وهذا الوضع أدى إلى زحزحة الطابع العلمي عن تلك الاختلافات والخصومات للإبقاء على عناصر العصبية والفردية والمذهبية وغيرها من الأخلاق التي ذمها الإسلام. والتي أدت إلى إنتقال تلك الاختلافات والخصومات من دائرة العلمية إلى دائرة العصبية القبلية أوالمذهبية أوالفكرية؟

ولذلك كان العمل على حصر الاختلافات في إطارها العلمي من شأنه أن يرفع الظنون السيئة عن المخالفين في الرأي، ويمهد لتلاق فرقاء الرأي والفكر.

يقول محمد يوسف موسى "إذا كان الخلاف في الرأي من طبائع الأمور، فإنه ليس من هذه الطبائع أن يتجاوز الخلاف حد الخصومة العاقلة في العلم، فينتهي بنا الأمر إلى أن يتباغض رجال المذاهب المختلفة في الدين أوالسياسة. بما هوعادة مثار الخلاف والنزاع.

وبعض من اتصلوا بالدين ودراسته يعادون هذا المذهب أوذاك من مذاهب الفقه أوعلم الكلام إستجابة لعقيدة جاءتهم بالبينة والوراثة لا لرأي نتيجة التفكير المتزن السليم...

ومثال آخر: إن كثيرا من العامة أوأشباه العامة في العلم يرون كفر بعض فلاسفة الإسلام، مع أنهم لا يكادون يعرفون شيئا من آراء هؤلاء المفكرين ومذاهبهم الفلسفية. غاية الأمر أنهم لقنوا أنه كان لهؤلاء الفلاسفة آراء خارجة عن الدين، وإستناموا لذلك وإستمرأوا الراحة ولم يعنوا ببحث هذه الآراء والكشف عما يكون فيها من حق وما يكون فيها من باطل لا يتفق وما جاء به الوحي. ولوأنصفوا الحق وكرامة العلماء لرجعوا إلى القاعدة التي فرضها على

نفسه حجة الإسلام الإمام الغزالي حين قام محاميا للدين ومدافعا عن الإسلام ضد ما تسرب إليه من الفلسفة الإغريقية...من أن الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها محال، بل رمي في العماية والضلال"[1]. وفي إضفاء الطابع العلمي على هذه الاختلافات إقصاء للخلافات التي أملاها الهوى والشهوة والسياسة وغيرها[2].

ولذلك فإن تناول قضايا الخلاف بين المسلمين بمنظار علمي هادئ من شأنه أن يخفف من حدة التوتر الفكري والمذهبي بين أتباع كل فرقة. بما سيقلّص المسافة بين الأخوة الفرقاء.

4- الإرتباط بالواقع الإجتماعي والثقافي والإقتصادي:

إن العقيدة الإسلامية ليست عقيدة مبهمة غامضة لا علاقة لها بالحياة وبواقع الناس. فتكون بذلك أقرب إلى نظرية ميتافيزيقية أوفلسفة مجردة في الحياة. أوكتابا في خزانة وإنما هي منهج حياة شمولي يتناول الحياة من مختلف جوانبها.

كما أن الإرتباط بالحياة وبالواقع الاجتماعي من صميم هذه العقيدة، التي تدعو لمؤمن إلى تجسيد كلا من الوظيفة السلوكية والاجتماعية والحضارية، لإيمانه وعقيدته. وهي لذلك تحثه على طاعة الله والامتثال لأوامره ونواهيه والمشاركة الإيجابية في الحياة الإجتماعية حتى لا يكون حضوره حضورا شكليا أوسلبيا.

---

[1] - محمد يوسف، موسى، السبل العملية للتقريب، في: حول الوحدة الإسلامية. أفكار و دراسات، ط 2، منظمة الإعلام الإسلامي، طهران، 1409 هـ. ص،ص: 71، 72.

[2] - طه جابر العلواني، المرجع السابق. ص:28.

لقد قضت البحوث الكلامية على وهج الإيمان، وحولت العقيدة إلى معادلات مادية ليس لها تأثير على الحياة الاجتماعية[1].

وقد أكّد القرآن الكريم في آيات كثيرة على ضرورة ربط العقيدة بالحياة الاجتماعية.

وبناء على ما سبق، اقتضى الأمر ضرورة الارتباط بمشكلات الواقع الاجتماعي، وعلاجها من منطلقات توحيدية وعدم تجريد العقيدة من مضمونها الاجتماعي والإنساني.

ولذلك فإن ارتباط المسلمين بواقعهم المعاصر خيرا لهم من مشاحنات الماضي وإفساد القلوب وزرع الكراهية والغيبة والنميمة وأكل لحوم بعضهم البعض. قال تعالى:" تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ"[2]

---

[1] محمد الوكيلي، **فقه الأولويات، دراسة في الضوابط**، ط1، هيرلدن، فرجينيا، 1997، ص: 18.

[2] سورة البقرة، الآية: 141.

ب- المرتكزات الفكرية:

1- إدراك الطبيعة المركبة للفتن السياسية:

إن كثيرا من المواقف الفكرية المتصلبة يعود سببها إلى عدم إدراك الطبيعة المركبة للأحداث التاريخية وللفتن السياسية على وجه الخصوص. فالمنهج الذي كتبت بها أحداث التاريخ الإسلامي يدعوإلى الفحص والمراجعة.

إن المنهج الوصفي الذي سيطر في كتابة أحداث هذا التاريخ، أدى إلى تكريس مشاعر الكراهية بسبب غياب المنهج التحليلي في تفسير وقراءة تلك الأحداث قراءة شاملة دقيقة تسلط الضوء على مختلف جوانب وزوايا الحدث النفسية منها والاجتماعية والفكرية...بدل الاكتفاء بالقرآءة السطحية.

إن الفتن السياسية التي حدثت بين المسلمين إشتركت في صناعتها العوامل الداخلية إلى جانب العوامل الخارجية. ولا يمكن في نظري القطع بموقف نهائي فيها بسبب ضياع أجزاء من تلك الحقائق مع مرور الزمن. وهذا ما يمكن ملاحظته مثلا في تضارب الروايات التاريخية.

إن عددًا من المستشرقين المعاصرين مثل: جرجي زيدان، فليب حتي وغيرهما أقبلوا على تفسير أحداث الفتن السياسية التي وقعت في صدر الإسلام، بوجود صراع داخلي بين الصحابة وراحوا يقسمون الصحابة إلى يمين ويسار...إلخ وحاولوا التركيز على العناصر المادية كالعامل الإقتصادي ومحاولة تفسير تعاليم الإسلام على أنها إمتداد لليهودية حينا وللمسيحية والديانات القديمة حينا آخر. أما الأحداث الداخلية التي عصفت بالمجتمع الإسلامي فحاولوا تفسيرها بوجود صراع وعدم وجود تجانس نفسي وفكري بين شرائحه وقادته...إلخ

إلا أننا إذا تناولنا الفتن السياسية التي فجرت الصراع الفكري والعقدي بين المسلمين لا نقف عند حد أن كل فرقة أظهرت مرويات وأخفت مرويات فقط بل تجاوز الأمر إلى درجة الوضع في الحديث كما هو معلوم.

وإذا كان علماء الحديث قد تعاملوا بحزم من نصوص الأحاديث النبوية من دراسة السند وفق منهج الجرح والتعديل وغيرها إلا أن أحداث التاريخ الإسلامي لم تجد نفس الإهتمام والعناية.

يقول محمد بن مختار الشنقيطي: "أما الذين لم يدركوا الطبيعة المركبة للفتنة، قد نحوا منحى الأحادية في التفسير والتبسيط في الوصف والتعميم في الأحكام: فالشيعة اتهموا نيات الجميع – غير أهل البيت طبعا- وطعنوا فيهم وبغوا عليهم. وبعض المتصدين لهم من أهل السنة ممن لم يلتزموا بمنهج العلم والعدل إقتصروا على جانب الشبهة ففسروا به كل شيئ، وغالوا في التكلف والتأول لتسويغ غير المستساغ وتبرير ما لا مبرر له. حتى بلغ الأمر بإبن العربي أن يتأول لقتلة الحسين وأهل بيته"[1].

وتجنبا للخوض الطويل في هذه المسألة أرى أن الطبيعة المركبة للفتن السياسية التي حدثت بين الصحابة الذين يمثلون القدرة والنموذج تفرض ضرورة الإبتعاد عن إطلاق وإصدار الأحكام القيمية وإجتناب التهويل والتضخيم...في التعامل مع تلك الأحداث بسبب ضياع أجزاء من تلك الحقائق التاريخية من جهة وتداخل عناصر تلك الأحداث من جهة أخرى، مما يجعل قرآءتها وفق المنهج الوصفي خطئا وخطرا منهجيا وفكريا وإجتماعيا.

---

[1] – محمد بن مختار، الشنقيطي، **الخلافات السياسية بين الصحابة**، ط 1، دار قرطبة، الجزائر، 2004. ص 82.

2- إجتناب الصياغة العقدية للخلافات الفكرية:

لا شك أن ضراوة الجدل وعنفه بين المتخاصمين من الفرق الإسلامية...كان له أثر سلبي على مستوى الفكر الإسلامي عموما وهوما ظهر في ذلك الانحراف المنهجي في مناقشة قضايا الخلاف، وعلى وجه الخصوص تبني الصياغة العقدية في التعامل مع المخالف بالتكفير أوالتبديع أوالتضليل أو التفسيق...

وهذا التضليل والتفسيق للأشخاص وللأفكار أعطى أعداء الدين والعقيدة الإسلامية فرصة الطعن في الإسلام بكونه يخاصم العقل والفكر وأنه مرادف للجمود والانغلاق.

والحقيقة أن مواجهة مختلف التحديات والشبهات من خلال عقلية التصنيف وتقسيم الناس إلى كافر وضال وفاسق ومؤمن، بعيدا عن لغة الحوار والحجة والبرهان. أمر ترفضه مبادئ الدين الإسلامي الذي دعا إلى إستعمال الحوار والكلمة الطيبة في الدعوة والإبتعاد عن العنف الكلامي حتى مع المشركين، فكيف بأهل القبلة!

قال تعالى:" وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا"[1]

وقال أيضا: "وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ"[2]

---

[1] - سورة العنكبوت، الآية: 46.

[2] - سورة الأنعام، الآية: 108.

غير أن التعامل مع فكر المخالفين من خلال إستصدار أحكام عقدية بدل الحوار والدليل، أدى إلى تفاقم وإتساع الشقة بين المتخالفين وتبادل التراشق الحاد بالتهم والتضليل.

لقد كان الخوارج من أوائل من إستصحب الصياغة العقدية في التعامل مع قضايا الفكر والسلوك فكفروا مرتكب الكبيرة...ثم كفروا عليا كرم الله وجهه...وكانت آرائهم الدينية المتشددة تعكس بوضوح ذلك للإستصحاب للصياغة العقدية. وعلى الرغم من أن الخوارج إنتهوا وتلاشوا مع مرور الزمن بسبب حروبهم مع الدولة الأموية ثم العباسية. لكن آثارهم وآرائهم وبصماتهم لا تزال حية وحاضرة بقوة، لا سيما في البيئات التي تعرف أشكالا من الفساد السياسي والخلقي. فتكون تلك البيئات أجواء ملائمة لإنبعاث وتطور هذا اللون من التفكير...

ولكن هذا الإنحراف المنهجي لم يكن مقصورا على الخوارج فحسب، فقد إنسحب على باقي الفرق الإسلامية بسبب عنف الجدل العقدي بين المتخاصمين..

3- إجتناب المبالغة والتكلف في التأويل:

لا شك أن باب التأويل باب واسع له ضوابطه ودقائقه ومخاطره في الوقت ذاته على الدين والمجتمع وبسبب الجهل بعلوم الإسلام، من لغة وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والسنة وغيرها.

وبدون هذه الأساسيات يصبح التأويل حركة إجتهاد فكري مضرة بالدين عقيدة وشريعة. يبين ذلك محمد بن مختار الشنقيطي فيقول: "لقد دخل الإنحراف في العقيدة والشريعة من باب التأويل لأنه يؤدي إلى تسويغ ما لا يستساغ وتسهيل العظائم...وإفتراق الأمة كما يذكر -إبن القيم- إلى ثلاث

وسبعين فرقة إنما أوجبه التأويل، وإنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل وصفين وفتنة إبن الزبير وهلم جرا بالتأويل، وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل، فما إمتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل. فإن محنته إما من المتأولين وإما أن يُسَلَّطَ عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل وخالفوا ظاهر التنزيل وتعللوا بالأباطيل.. وما الذي سفك دم أمير المؤمنين عثمان ظلما وعدوانا وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟ ...وهل دخلت طائفة الإلحاد من أهل الحلول والإتحاد إلا من باب التأويل..

وفي دراسة الخلافات السياسية بين الصحابة رضي الله عنهم على الباحث أن ينتبه إلى خطر التكلف في التأويل في طمس معالم المبادئ الإسلامية وتمييع المعايير الشرعية، وهوأمر يقود إلى إستسهال الناس الإتيان بكل الموبقات السياسية من قتل الأنفس المحرمة والإستبداد بالأمر والاستئثار بالسلطة والثروة والتساهل مع الظلم والبغي، وتجاهل قيم الشورى والعدل...إلخ [1]

ولذا وجب العلم بحقيقة التأويل وضوابطه ومعرفة التأويل القريب من التأويل البعيد وما يتصل به من علوم ضرورية، حتى لا يتحول إلى منفذ وباب للمتلاعبين والمتعاملين والمتآمرين على إفساد الدين والأمة.

ولذلك كان المجددون يدركون خطورة هذه المسألة الدقيقة. فجاء في الأثر يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله يزيلون عنه تحريف الجاهلين وتأويل المبطلين.

[1] – محمد بن مختار، الشنقيطي، المرجع السابق، ص، ص: 99-100.

4- الإقرار بثقل الموروث الفكري والتاريخي:

إن الإخلاص والتجرد لله، يدعوكل متصد لتوحيد الأمة إلاّ أن يعترف ويقر بثقل الموروث الثقافي والتاريخي للأمة الإسلامية، على المستوى العقدي أوالفقهي. وهذا الثرات العلمي الضخم شكل ثروة كبيرة لها جوانبها الإيجابية ولها آثارها السلبية التي نتجت من عدم القدرة وإنعدام الشجاعة الدينية والأدبية في مراجعة ذلك التراث مراجعة نقدية. مما أدى إلى تلك النظرة التقديسية لذلك الموروث بأفكاره ورجاله.

ليصبح كل بحث أوباحث في هذا التراث وفق نظرة نقدية محل إتهام وطعن وتشكيك في عقيدته وانتماءه.

وهذه الأجواء المسمومة التي شارك في توسيع مساحتها التعصب وجود العلماء الرافضين المشككين في كل محاولة فهم جديدة لدين وتعاليمه واستبداد الحكام الذين وجدوا في استمرار الجهل والجمود تثبيتا لسلطتهم الزمنية.

لينتج عن ذلك موروث ضخم جدا من الأفكار والمفاهيم والآراء الدينية والإجتماعية التي كان من الصعب قبولها جميعا وتصويب جميع ما ورد فيها. في بوثقة واحدة، لكونها عبارة عن تفاعل بشري عقلي مع الوحي المعصوم. ليتسع مفهوم العصمة من دائرة الوحي ليشمل الفكر المتعامل مع الوحي[1]، وهذا الإنحراف أدى إلى وجود حشد كبير من المفاهيم والآراء الدينية التي لم تستطع الأمة فيما بعد رفضها أوتقبلها في الوقت نفسه.

---

[1] - حسن الترابي، تجديد الفكر الإسلامي. ط1، دار البعث، قسنطينة، 1990، ص ص: 9-11.

فرفضها يصطدم بعقلية التعصب الديني والإجتماعي الذي نشأ طوال عصور ماضية وقبولها يصطدم بالعقل ويدفعه إلى الإعتقاد بالتناقض والإضطراب...مما يؤدي إلى تفكيك بنية العقل المنهجية في الحكم على الأشياء والأمور.

وهذا التمزق الداخلي بين العقل والمجتمع أدى إلى التسليم بثقل هذا الموروث وصعوبة الحسم في العديد من قضاياه الفكرية والإجتماعية من دون إحداث إهتزازات نفسية وأخلاقية وإجتماعية عنيفة لا سيما والأمة تعيش حالة من الضعف والتكالب الإستعماري على هويتها وثرواتها. مما يجعل كل إهتزاز داخلي لصالح أعداءها المتربصين بها.

وهذا التشخيص لقيمة ودور هذا التراث يجعل كل تجديد على مستوى الفكر والفهم بداخل المجتمع الإسلامي. يتطلب صبرا كبيرا وأجيالا مستنيرة تحسن التدرج في الإنتقال من مرحلة فكرية لأخرى، تجمع في تعاملها مع الموروث الحضاري التاريخي بين الحب والإحترام والنقد الإيجابي البناء حرصا على أن لا يتحول المجددون إلى فرقة تقف إلى جانب باقي الفرق الإسلامية فتضاف فرقة جديدة للفرق الإسلامية وإنما تكون حركة فكرية داخل المجتمع الإسلامي بأكمله مما يفرض التدقيق في تحديد المفاهيم والمصطلحات وتقدير المواقف والأوضاع وتمييز الإجتهاد المقبول من الإجتهاد المرفوض والتمييز بين الخطأ والخطيئة...حتى لا يكون التجديد نسفا للموروث بأكمله وتمزيقا للمجتمع.

5- إبعاد تأثير مناهج قرآءة خلافات المسلمين على منهج الوسطية والإعتدال:

إن الخلافات التي دارت بين المسلمين في العصور الأخيرة ناتجة إلى عدم التمييز بين منهج التأصيل ومنهج التاريخ. فهناك من أخذوا بمنهج التأصيل

وحاكموا الجميع إلى مبادئ الإسلام وشرائعه وأصدروا آرائهم وأحكامهم على الأحداث والأشخاص، بناءًا على هذه القاعدة. وهناك من أخذوا بمنهج التاريخ وقيموا إنجازات كل فترة وكل عهد إلى ما بعده. إنطلاقا من أن تطور الدولة الإسلامية كان سنة طبيعية في الحياة.

ولكل دولة سلبياتها وإيجابياتها. وتجنبوا إطلاق الأحكام الدينية لإقتصارهم على قياس النتائج والآثار.

ونتيجة لذلك تباعدت آراء المسلمين عن بعضهم البعض تباعدا كبيرا. وأدى ذلك إلى المبالغة والتهويل فيإصدار الأحكام والتعصب في الآراء والمواقفعوض المرونة والإتزان في قرآة وفهم حقيقة الفتن التي عصفت بالمسلمين في القرون الأولى لمعرفة وكيفية تعامل العلماء من أهل السنة معها.

كما يقول محمد بن مختار الشنقيطي مبينا ذلك:

"والذي يستقرئ موقف أهل السنة من الفتنة، فلن يجد مذهبا واحدا بل سيجد خمسة على الأقل:

1- مذهب الممسكين عن الخوض في الخلاف مطلقا، وهذا الذي عليه متكلموا أهل السنة فهم أقل الناس خوضا وكتابة في الموضوع رغم ولعهم بالجدل وتشقيق الكلام في مواطن أخرى.

2- مذهب الداعين إلى الإمساك عنه مع خوضهم فيه كالذهبي في "تاريخ الإسلام" و"تسيير أعلام النبلاء" وابن كثير في "البداية والنهاية" ويحمل خوضهم على أنه ترخص لغرض تعليمي أوأن الخوض عندهم هو ما كان على سبيل الذم والقدح.

3- مذهب الخائضين في الخلاف مع التأول لكل الأطراف بأن كلا منها مجتهد مأجور، وهذا مذهب مشهور ذائع اتبعه جماهير الأمة عبر القرون، خصوصا غير المتمكنين من خلفيات الأحداث ومراميها.

4- مذهب الخائضين دون تأول، وقد اشتهر من أهله بعض علماء التابعين أمثال حسن البصري، وهذا الذي أشار إليه شيخ الإسلام بقوله "فائدة ومما ينبغي أن يعلم"

5- مذهب المغالين في الدفاع، المنفعلين بردة الفعل المتأولين للصحابة وغير الصحابة بحق وبغير حق. ويمثله ابن العربي وتلامذته."[1].

والحقيقة أن حساسية هذه الأحداث الخلافية التي وقعت بين المسلمين تتطلب تجنب التهويل والتعميم، وعدم التجرؤ على العظماء ومعرفة أقدار الرجال من السابقين وغير السابقين. لإدراك الصدق والموضوعية. مع الحرص في الوقت نفسه على إحقاق الحق وإبطال الباطل، تفاديا لإختلاط المفاهيم والقيم التي تؤدي في النهاية إلى تدمير أجيال جديدة في أمواج الحقد الديني والمذهبي والتاريخي. فتحيا بذلك بعيدا عن الحضارة لعجزها عن إستيعاب التطورات الحاصلة وبعيدا عن الدين في الوقت نفسه...ولن تستطيع الأمة تجاوز خلافاتها إلا من خلال منهج الإعتدال والوسطية والإتزان الذي يعمل على رفض الغلو والتطاول والتشدد سواء في الإعتقاد أو الأخلاق أو الشعور أو العلاقات. فتتمكن الأمة بذلك من إعادة بناء ذاتها، بناء يضم الجميع ولا يقصي أحدا.

---

[1] - محمد بن مختار، الشنقيطي، المرجع السابق، ص ص : 90، 91.

ج - المرتكزات الأخلاقية:

1- الإخلاص لله تعالى وترك التعصب:

إن إخلاص النية والعمل لله تعالى وطلب مرضاته من شأنه أن يحرر الإنسان من العبودية لغير الله، من مختلف أشكال العبودية للأشخاص وللأهواء وللأوضاع. ورفض التعصب مذهبيا أوطائفيا حيث يكون القصد بالعمل وجه الله تعالى فلا مكان للسمعة أوالرياء، أوالمجاملات على حساب الحقيقة.

فإذا وجد الإخلاص، حضرت الشجاعة الدينية في التصدي والجهر بكلمة الحق دون إكتراث للوم اللائمين.

إن تصحيح النوايا بالتوبة والإخلاص من شأنه أن يدفع إلى التوحد والتعقل والإبتعاد عن التهور والتعصب والحوار الأخوي وغيرها من الفضائل السلوكية والنفسية التي ألزم الإسلام بها المؤمنين.

لكن الذي حدث في ظل التطاحن والصراع الفكري والمذهبي، أن ساد التعصب على حساب الحقيقة. وخدش الإخلاص لله تعالى.

إن تلويح المسلمين على إختلاف أفكارهم ومذاهب بالإخلاص لله مع استمرار التعصب دلالة على وجود خلل في القلوب لا يزول إلى بالتوبة والرجوع إلى الله.

2- إعتماد الحوار بدل الجدل:

الحوار هو أسلوب الأنبياء والجدل هو أسلوب الفلسفة والفلاسفة. الحوار هدفه الوصول إلى إدراك الحقيقة، والجدل هدفه التغلب على الخصم وإفحامه بشتى فنيات المناظرة إلى حد اللجوء إلى السخرية بالآخر.

ولذلك كان من غير اللائق اللجوء إلى الجدل الفلسفي كأسلوب تخاطب بين المسلمين في الوقت الذي نجد فيه الحوار هو نهج القرآن في تقديم نفسه وجمع كلمة أبناءه ولا شك أن القرآن الكريم وهو يدعو إلى إعتماد الحوار أسلوبا على أساس الحجة والبرهان والدليل. كان يعلم الناس كيف يصلون إلى قناعاته وآفاقه بالكلمة الحلوة والأسلوب الطيب والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن[1].

في حين نجد الجدل يتضمن القسوة والشدة مع المخالف، وهذه الأمور من شأنها إفساد القلوب والعلاقات.

لقد جادل ابن عباس رضي الله عنه الخوارج فماذا الذي حدث؟! وهل رجعوا إلى رشدهم؟

وجادل المعتزلة خصومهم فهل أقنعوهم؟ وجادل أبو حامد الغزالي فلاسفة الإسلام فهل ردهم عن إعتقادهم؟ وجادل المسلمون بعضهم بعضا طوال قرون.

لا شك أن الجدل قوة عقل صارمة لا تقبل الليونة والمرونة. ولكن هل كل الناس يساقون بعقولهم.

إن إعادة بناء جسور الوحدة بين المسلمين ومناقشة خلافاتهم يحتاج إلى دواء حساس ولن يكون إلا بمنهج الحوار الذي يحافظ على عمق المودة والحب والعاطفة ولا يدوسها أمام الجفاف العقلي...

إن المسلمين اليوم في حاجة إلى الحوار فيما بينهم قبل مجادلة أعداءهم من الملاحدة واليهود و...إلخ.

---

[1] – محمد، حسين فضل الله، الحوار في القرآن الكريم، ج 1، دار المنصوري، قسنطينة، ص ص: 23-27.

ولذلك كان من غير اللائق اللجوء إلى الجدل الفلسفي كأسلوب تخاطب بين المسلمين في الوقت الذي نجد فيه الحوار هو نهج القرآن في تقديم نفسه وجمع كلمة أبناءه ولا شك أن القرآن الكريم وهو يدعو إلى إعتماد الحوار أسلوبا على أساس الحجة والبرهان والدليل. كان يعلم الناس كيف يصلون إلى قناعاته وآفاقه بالكلمة الحلوة والأسلوب الطيب والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن[1].

في حين نجد الجدل يتضمن القسوة والشدة مع المخالف، وهذه الأمور من شأنها إفساد القلوب والعلاقات.

لقد جادل ابن عباس رضي الله عنه الخوارج فماذا الذي حدث؟! وهل رجعوا إلى رشدهم؟

وجادل المعتزلة خصومهم فهل أقنعوهم؟ وجادل أبو حامد الغزالي فلاسفة الإسلام فهل ردهم عن إعتقادهم؟ وجادل المسلمون بعضهم بعضا طوال قرون.

لا شك أن الجدل قوة عقل صارمة لا تقبل الليونة والمرونة. ولكن هل كل الناس يساقون بعقولهم.

إن إعادة بناء جسور الوحدة بين المسلمين ومناقشة خلافاتهم يحتاج إلى دواء حساس ولن يكون إلا بمنهج الحوار الذي يحافظ على عمق المودة والحب والعاطفة ولا يدوسها أمام الجفاف العقلي...

إن المسلمين اليوم في حاجة إلى الحوار فيما بينهم قبل مجادلة أعداءهم من الملاحدة واليهود و...إلخ.

---

[1] - محمد، حسين فضل الله، الحوار في القرآن الكريم، ج 1، دار المنصوري، قسنطينة، ص ص: 23-27.

3- إحسان الظن بالمخالف:

لا يجب إساءة الظن بالمخالف في الرأي وإتهامه في دينه وعقيدة وأخلاقه ورميه بشتى أنواع التهم لمجرد مخالفة رأيه لرأينا...ومادام إجتهاده في الدائرة المسموح بها، في الفروع والجزئيات التي لا إنكار فيها.

إن إتهام نيات الناس أمر منهي عنه في الشرع... فليس من أخلاق المسلم الطيش ولقد كان سوء الظن وراء كثير من الفتن التي عصفت بالمسلمين ومزقتهم. فلنغير أنفسنا كأساس لتغيير حالنا.

ولا شك أنّ تقيّد المسلمين على اختلاف فرقهم وتياراتهم بهذه المبادئ والمرتكزات من شأنها أن تقرب المسافة بين الجميع كخطوة نحوالوحدة الإسلامية الكبرى.

خاتمة:

إنّ المتأمّل لحال الأمّة الإسلامية ليقف محزونا قلقا على مصيرها ومستقبلها، فحياة الأمّة واستمراريتها تحدّده اتّجاه حركة فكرها كما يقول مالك بن نبي.

وما دام الفكر العقدي بوجه خاص لا يزال منشغلا باستحضار خلافات الماضي فستظلّ الخلافات والانقسامات والفتن هي التي ترسم واقع المسلمين، غير أنّ خلافات المسلمين فيما بينهم ليست قدرا محتوما يجب أن يفني فيه بعضهم البعض، وإنّما يجب أن تتحوّل إلى قوّة عقل داخلية تعبّر عن حركية هذا المجتمع وحيويّته، وتعبيرا عن ذلك التنوع الفكري والثقافي لهذه الأمّة الواحدة.

ولذلك فإنّ تقيّد المسلمين جميعا بهذه المبادئ والمرتكزات السابقة فيما نعتقد من شأنه أن يقرّب المسافات بين القلوب والعقول كخطوة على طريق الوحدة الإسلامية الكبرى.